احمد ابو سعد

اغاني ترقيص الاطفال عند العرب

منذ الجاهلية حتى العصر الاموي

« أغاني ترقيص الاطفال عند العرب منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الاموي » محاولة لدراسة نوع من انواع التراث الشعبي العربي ، كتبها الاستاذ أحمد أبو سعد في مؤلف بهذا العنوان . وقد طلبت « الآداب » الى المؤلف ان يحدث قراءها عن موضوعه وخطته التي التزمها في دراسته والثمرات التي يمكن ان يجنيها قارىء كتابه .

صلتي بالبحث ترجع منذ أمد ليس بالقريب الى اهتمامي بالفولكلور العربي والاغاني العربية الفولكلورية ، وهو اهتمام نشأ عندي نتيجة الرغبة اولا في أن أقدم جانبا من التراث اهمله الدارسون من قبل ، مع انه الاكثر دلالة على حياة الاقدمين واذواقهم واحوالهم النفسية والاجتماعية ، وأتنكب ثانيا عن الموضوعات التي اعتاد الباحثون ان يقصروا عليها مجال دراساتهم ، من مثل الانواع التي كثر الكلام فيها واستفاض وزاد عن الحد ، او الانواع التي انقطعت الصلة بينها وبين واقعنا الذي نحياه ، وأتجاوزها الى غيرها من الموضوعات التي تفيد في اغناء الحاضر بتجارب الماضي ، وتحقق الصلة الديالكتيكية بين القديم والجديد ، وتعيد من ثم التراث العربي الى موضعه من التراث العالمي . فلقد مضى وقت طويل وبعض الباحثين في بلادنا مقتنع بان التراث الادبي في اللغة العربية فقير في الانتاج الحي المعبر عن جوهر الانسان وواقع عيشه اليومي ، وانه خال من فنون كثيرة من فنون القول التي ظنوا ـ وبعض الظن اثم ـ انها « وارد » أوروبة فقط .

ولعمري ان « أوْرَبَة » كل شيء، اي جعل اوروبة محور الحضارة منها تبتدىء واليها تنتهي ، لهي احدى الظاهرات التي انتشرت في فترة من الفترات بين عدد من الدارسين الغربيين اثناء معالجتهم تراث الشعوب غير الاوروبية ، وبها تأثرت تلك الحفنة من دارسينا « المتأوربين » في بلدان الشرق العربي .

واني وانكنت لا أذهب مع القائلين ان هذه الظاهرة كانت بمجملها ، وعلى وجه اليقين ، مخططا استعماريا يهدف الى « الطمس المخطط على مساهمات شعوب القارات الثلاث في الحضارة العالمية ، وتأكيد النظرات العنصرية حول خصائص « العقل الآري » وانفراده بانتاج الحضارة دون العقول الاخرى » فلست ابرىء الذين انجرفوا بتيارها من فقدان عملية الجمع المستقصي لمواد دراساتهم ، وعدم قيامهم بالاستقراء الكامل لنصوصها ، أو اخذهم بالنظرية الاحادية الجانب في تعليل الظواهر .

ومهما يكن الامر فليس من الكفر القول : « ان أوربة التراث العالمي يمكن ان تجابه فقط عندما يتم الكشف عن المزيد من مآثر الشعوب غير الاوروبية » بل القيام بمثل هذا الامر هو واجب هذه الشعوب التي تطمح الى أن تزيل التشكيك في قدراتها الذاتية على التطور ، وتحاول تأكيد شخصيتها واسهامها الفعلي في صنع التاريخ الحضاري للبشر . وهذا ما جربت فعله في هذا الكتاب ، وهو يشبه ما فعلته منذ سنوات في دفاعي عن وجود القصة في الادب العربي ، ووجودها بغزارة ، وبالصورة نفسها التي وجدت عليها عند الغربيين .

جرت قبلي محاولتان في تقديم اغاني الترقيص الى قراء العربية ، ولكن صاحبيهما لم يفيدا من مناهج البحث العلمي كما افدت ، فقصر الاول منهما عمله على جمع المادة ثم عرضها دون درس وتحليل وكرر الثاني ما فعله الاول بزيادة بضع اغنيات لم يقع عليها الآخر ، وظل عملهما يفتقر برغم فضيلة السبق التي احرزها الى

النهج العلمي الذي ينتفع بجميع مناهج الدراسات الادبية فيصل بين دراسته وبين سائر العلوم والدراسات النفسية والاجتماعية ، ولا يكتفي بجمع المادة وبعرضها ، وانما يحدد طبيعتها ، ويصنفها وفق الاغراض ووفق جماعات الغناء والذين تغنى لهم ، ويعمد الى دراستها في اطار العادات ، ويقارنها بانماط من نوعها ظهرت في مناطق مختلفة نتيجة لظروف متشابهة ، ثم ينهي دراسته باشتقاق الظواهر والخصائص الكلية التي تنتج عنها .

وهذا ما أزعم لنفسي انني قمت به ، فقد قصدت في الباب الاول الى أن أبين في بحث شبه مقارن ما يقصد بالغناء للاطفال عند الامم كافة ، حدوده ، والمصطلحات التي أطلقت عليه ، والانواع التي تفرعت منه ، والمعاني التي اندرجت تحته ، ثم نصيب العرب الاقدمين من هذا الغناء ، وعرضت في الباب الثاني أغاني الترقيص العربية على مدى ثلاثة عصور ، ما غني منها للذكور وما غني للاناث بدءا بالعصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الاموي ، وجاء الباب الثالث تحليلا لهذه الاغاني شمل دلالتها النفسية وتفسيرها الاجتماعي ، وعلاقتها بالظروف المعيشية التي كان يحياها سواد الشعب ، وقدم من خلالها البعد الصحيح لاحوال الناس وحقيقة مقوماتهم الفكرية ، وقيمهم الاجتماعية والجمالية .

وقد تخلل الباب الاخير أحاديث كثيرة عرضت اثناء البحث في الاسلوب والخصائص الفنية ، تناولت فيها الاغاني من زاوية الشكل أو البناء الخارجي ، ودرست الطريقة التي كانت تؤدى بها في ضوء علم نفس الموسيقى وعلم العروض ، ولم أنس ان اشير الى علاقتها بالرجز ، وعلاقة الرجز بالغناء الفولكلوري او الشعبي ، كما رافق هذه الاحاديث كلام كثير على المفردات والقوافي وما لها من خصائص وعلاقة كل ذلك بالبيئة .

واذا كان لكل بحث نتيجة او ثمرات او استنتاجات فان نتائج بحثي وثمراته التي يمكن ان تجتنى منه تتمثل في عدة ظواهر منها : اشتمال التراث العربي على كنوز خبيئة وصور من التعبير يحسن أن تكون موضع عناية الدارسين ، بينها الاغاني التي كانت تغنى للاطفال ، وتشابه هذه الاغاني مع ما كان يغنى للاطفال عند سائر الشعوب ، ودورانها حول المعاني نفسها ، وهاتان الظاهرتان حملتني أولاهما على الخروج منها بنتيجة هي كون العرب لم يتخلفوا عن غيرهم في هذا اللون من الغناء وسموه الترقيص وميزوا بينه وبين الهدهدة ، وجعلتني الثانية اتمكن من ان استنتج ما أسماه العلامة تايلور الوحدة الجوهرية للطبيعة البشرية ووحدة خطوط التطور في الثقافة الانسانية ، كما أفضت بي الى القول بعد أن قابلت بين هذه الاغاني التي كانت تغنى للاطفال عند العرب قديما وأغانيهم في زماننا وأغاني الشعوب الاخرى ، ان التطور الروحي للانسان يتخذ انماطا شديدة التشابه في مختلف انحاء الارض وفي شتى أنواع المناخ وذلك بالرغم من الاختلاف البالغ في درجة التطور .

ومما لفتت الانظار اليه هذه الدراسة كذلك ان العرب كان لهم جهود قديمة في ميدان جمع المأثورات الشعبية الخاصة ما كان يغنى للاطفال جعلتهم من رواده الاوائل في العالم ، وهو أمر شهدت به مجموعة الاغاني التي أوردتها هنا ، والتي وجد بين العرب ، قبل ألف عام ، من أفرد لها كتابا مستقلا وعدها فنا قائما بذاته ، وانهم بكراهيتهم للطفل ان ينوّم وهو يبكي ، وتحبيذهم تدليله وارقاصه والغناء له حتى يطيب نومه ، كما يستفاد من الاقوال التي جمعتها من مأثوراتهم لتأييد ذلك ، أقول انهم بهذا كانوا مدركين وبصورة واعية لاصول تربية الطفل واتباع الطرق التي تضمن له صفاء المزاج وارتياح القلب وهدوء الاعصاب وراحة البدن .

واني بالاستناد الى الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية وعلم المأثورات الشعبية أو الفولكلور قد توصلت خلال بحثي الى رأي مفاده ان هذا النوع من الغناء كانت له صفات الفولكلور الغنائي من حيث توارثه بالرواية الشفوية ونسبه المجهول في بعض الاحيان وصفة المرونة فيه وقابليته للتعديل ، ومن حيث دلالته على المجتمع وعلاقته بالظروف المعيشية التي كان يحياها سواد الناس وتعبيره أصدق تعبير عن نفسية الشعب وذوقه واخلاقه وعاداته وجملة الميزات التي توقف شخصيته القومية في أبعادها الحقيقية . كما اتضح لي من خلال درس مادته واستخراج مضامينها احتفاظ مجتمعنا حتى اليوم بكثير من النظم والعادات والتقاليد والتصورات التي كانت شائعة في الماضي من مثل سيادة القيم والعادات المتعلقة بالبداوة والمجتمع الابوي واستمرار بعض التقاليد والمعتقدات القديمة جاريا في استعمال قسم غير ضئيل من أبناء شعبنا في حياتهم اليومية على الرغم من استقرار نوع آخر من العلاقات وأسلوب الحياة .

وقد وجدت لهذه الظاهرة ما يفسرها ، وهو ان زوال عصر ما قد لا يستوجب زوال تقاليده ، او ان التراث العربي تواصل وثبت بثبات بيئته وجمود اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ولست أزعم في النهاية ان دراستي استكملت من جميع النواحي، وذلك لسبب بسيط هو ان الدراسة الميدانية لم تكن ممكنة ، والتراث لم يمسح على الوجه الذي يقنع بامكانية الاحاطة به ، واكثر من نصف آثاره لا يزال غير مطبوع ، ومع ذلك ربما جاز لي القول انها استكملت بالقدر الذي سمحت به المصادر ، وكان فيها اسهام علمي متواضع في ضبط التاريخ الاجتماعي للمراحل الاولى من المجتمع البشري او اضاءة الحقبة الزمنية التي تتصدى لها ، وانها قد تغري باحثا آخر بدراسة مثل هذا النوع من التراث الشعبي المغمور الذي يجب ان يستكمل في سائر العصور ، وتصحح ما كان قد استقر في نفوس كثرة الباحثين من ان العرب لم يخلفوا آثارا كهذه ، او ان آثارهم التي عبروا بها عن انفسهم على هذا النحو لم تصل الينا .

وربما كان فيها ، على الصعيد القومي ، اعانة ملحوظة على ابراز ماضي العرب النفسي والوجداني والتعرف على ألوان التعبير عندهم وكيفية تصوير أدبهم الشعبي لمجالات الجدّ والكراهية ومجالات العمل ومجالات الفكاهة وغيرها من خيوط نسيجهم الحضاري .

ولا أعتقد انها من الناحية العالمية غير ذات فائدة ، فهي ربما أدت الى زيادة معلوماتنا عن الانسان عامة ، وزادت القوة التي تمكننا من فهم القدرات البيولوجية والوراثية لديه ، وفهم طبيعته ومحاولة ايجاد أسس علمية ومنهجية نكون في متناوله عند الاقتضاء ، وقد يكون فيها اسهام في اكتشاف الميزات المشتركة بين الشعوب لتكون أداة تعارف وتقارب بينها .

بيروت

صدر حديثا عن دار الطليعة

* موضوعات من تجربة الثورة
منير شفيق
* حركة رشيد عالي الكيلاني
اسماعيل احمد ياغي
* التنظيم الثوري الحديث
العفيف الاخضر
* التطور اللارأسمالي
عزيز السيد جاسم
* من اجل احباط الحل الاستسلامي
منظمة العمل الشيوعي

دار الطليعة ـ ص. ب ١١١٨١٣ ـ بيروت